المدرسة الشاذبكلية – جامع الشاذبكلية

إعداد الباحث التاريخي عماد الأرمشي

وقد ورد ذكر المدرسة الشاذبكلية في العديد من المؤلفات التاريخية تحت مسمى مدرسة شاذ بك بقرية القنوات، وحُرفت التسمية بالعامية الشامية كما يلفظها أهل الشام من العوام إلى (المدرسة الشابكلية).

وقد اختلفت تسمياتها مثل:

المدرسة الشاذبكلية نسبة إلى منشئها الأمير **سيف الدين شاذي بك**، وهذا هو الصحيح (الشاذبكلية) مدرسة شاذي بك طبعاً لنفس التسمية أعلاه.

جامع الشابكلية: وهو تحريف لفظي على ألسنة العوام من أهل الشام لكلمة الشاذبكلية.

المدرسة الشاذبكية قبل الترميم

وقد تم تجديد بناء المدرسة في **عهد السلطان العثماني** محمود الثاني عام 1232 للهجرة الموافق 1816 للميلاد أيام ولاية الوالي علي باشا، والذي أشرف على هذا التجديد ومن ماله الخاص المرحوم الحاج أحمد الموره لي. ثم زال بعد التجديد... أثر المدرسة وغرفة الدرس، **وصارت مسجداً يعرف بمسجد الشابكلية.**

كما جرى تجديد البناء مرة أخرى عام 1407 للهجرة الموافق 1986، ثم تم ترميم البناء بشكل جميل وكشف ما حوله من الأبنية العشوائية، وإعادة افتتاح مسجد الشاذبكية في بدايات القرن الحادي والعشرين.

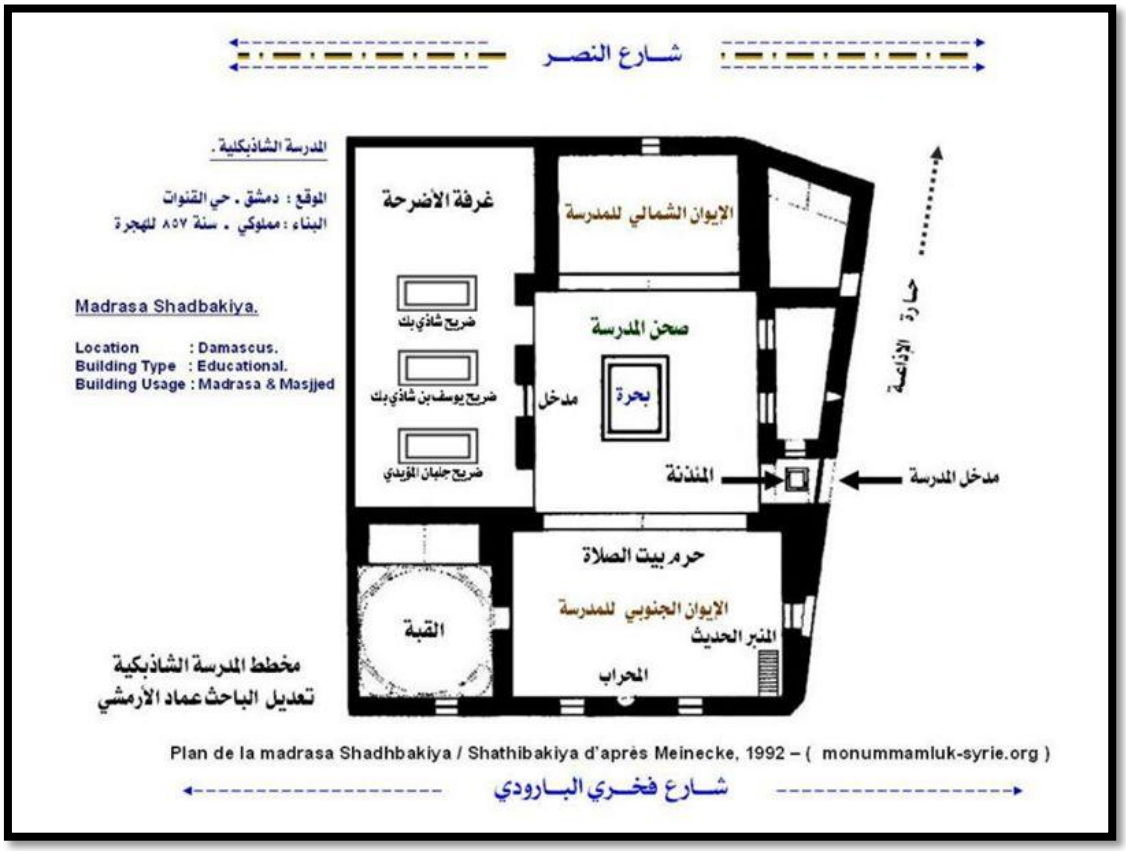

ومرجعاً إلى مخطط المدرسة الشاذبكية نرى أن الواجهة الشرقية تنحرف مع انحراف زاوية حارة الإذاعة الواصلة بين شارع النصر، وبين شارع فخري البارودي، وتفقد بالتالي تناظرها حسب استقامة شوارع الشام.

في حين أن الجانب الأيمن للمدرسة أصم لا يوجد به أي زخارف، نجد أن الجانب الأيسر يزخر بثلاثة محاريب تزينية تخترقها النوافذ، تشبه مقرنصات المحاريب التزينية مقرنصات المدرسة الجقمقية وخانقاه النحاسين، لقد أضيفت قبة صغيرة في القسم الشرقي من البناء.

المدرسة تعتبر من مدارس **العهد المملوكي** المتأخر في الشام، وفيها من الأصالة في التصميم والفن والزخرفة ما يجعلها نموذجاً لفنون ذاك العصر في العمارة والزخرفة وجاءت في غاية الحسن، ومخطط تصميم المدرسة، مبتكر بالإضافة الى الجمال والإتقان في البناء وخاصة في بناء المقرنصات، وفي حجارة الواجهات، والأشرطة الكتابية، والحليات المعمارية، والعناصر الزخرفية التي استخدمت في كسوة الجدران.

أقول هنا وبعد زيارتي الميدانية للمدرسة في نهاية عام 2007، أن البوابة الرئيسية للمدرسة الشاذبكية غنية بالمقرنصات المتناظرة هندسياً بشكل بديع، وبوجود حنايا ومحاريب غائرة، ذات زخارف جميلة، ومتوجة بالطاسة الشعاعية الأبلقية من الحجارة البيضاء والسوداء والمزية اللون، يعلوها قوس مجدول مزخرف ويستند على دائرتين في كلا الجانبين ومتوج بدائرة عليا كما هو تاج العروس.

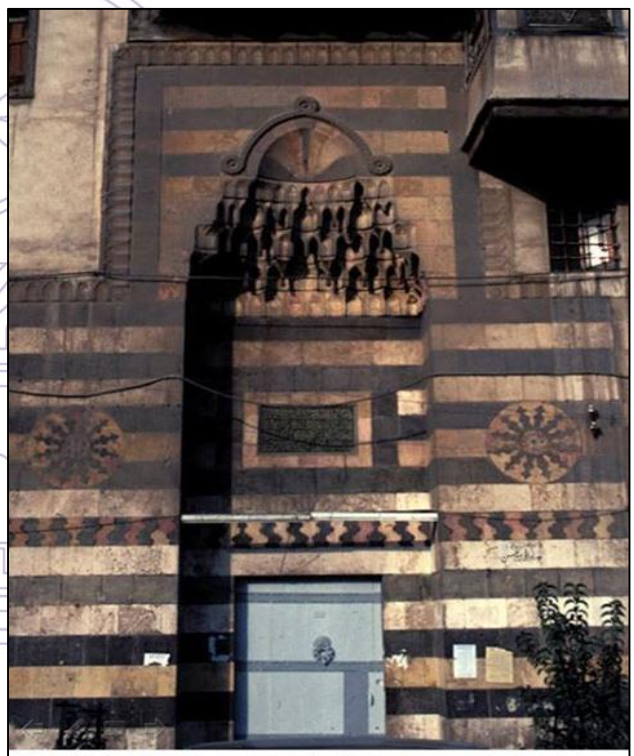
واجهة بناء المدرسة الشرقي قبل الترميم / عماد الأرمشي

واجهة المدرسة الشاذبكلية بعدسة الدكتور حازم مهتدي

وتبدو بالصورة واجهة بناء بوابة المدرسة قبل الترميم في منتصف ثمانينات القرن العشرين ويظهر شكل البوابة المعقودة بالمقرنصات الغنية بالدلايات، وفوقها طاسة ملساء زخرفية، وتحت المقرنصات اللوح الحجري المؤرخ للمدرسة، وفي الأسفل يوجد مدماك من المدكك الأبلقي الجميل من الحجارة السوداء والمزية اللون يرتكز إلى ساكف الباب، وعلى طرفي البوابة حشوتان شمسيتان مستديرتان، واليسرى منهما مشتركة بين البوابة الرئيسية والبوابة الثانية الأقصر طولاً في جنوب بناء المدرسة.

وهذه الواجهة هي الواجهة الشرقية والمعقودة بقوس ثلاثي الحنيات، وفي الواجهة نفسها ثلاث حشوات مستديرة مدككة التركيب تحتها شريط يمتد عبر الواجهة الجنوبية وفي كل بوابة لوح حجري منقوش بالكتابات المؤرخة لبناء المدرسة.

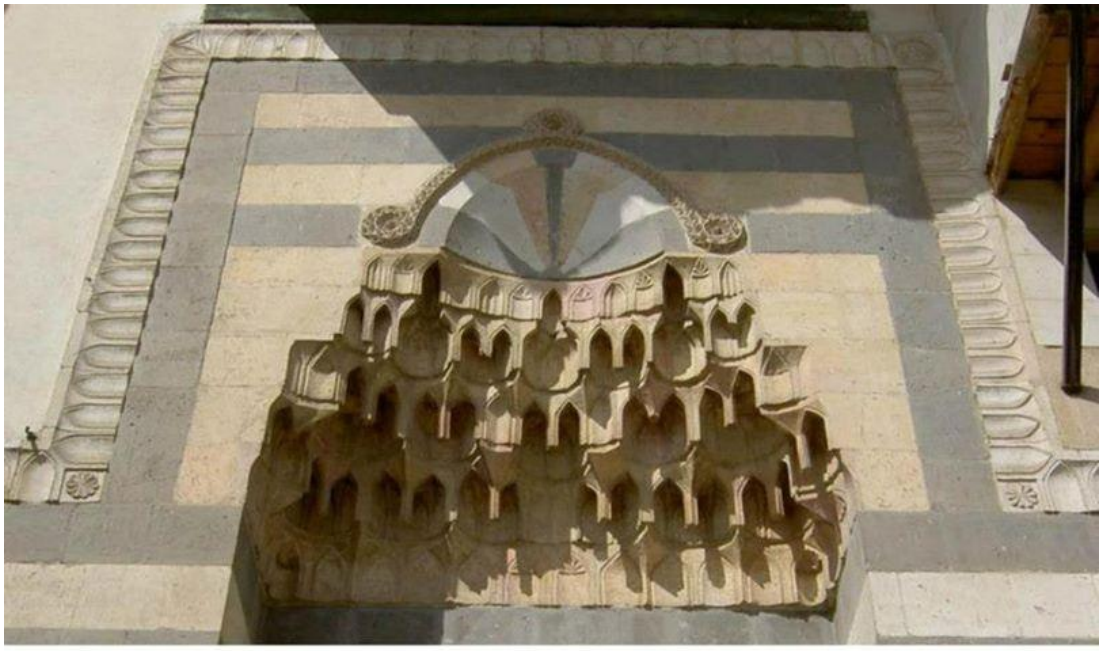

المقرنصات المتناظرة و الحنايا و المحاريب الغائرة متوجة بالطاسة الشعاعية الأبلقية للمدرسة الشاذبكية / عماد الأرمشي

البوابة الرئيسية للمدرسة الشاذبكية وتبدو فيها المقرنصات المتناظرة هندسياً بشكل بديع، وبوجود حنايا ومحاريب غائرة، ذات زخارف جميلة ومتوجة بالطاسة الشعاعية الأبلقية من الحجارة البيضاء والسوداء والمزية اللون، يعلوها قوس مجدول مزخرف ويستند على دائرتين في كلا الجانبين ومتوج بدائرة عليا كما هو تاج العروس.

المدرسة الشاذبكية بعدسة الدكتور حازم مهتدي

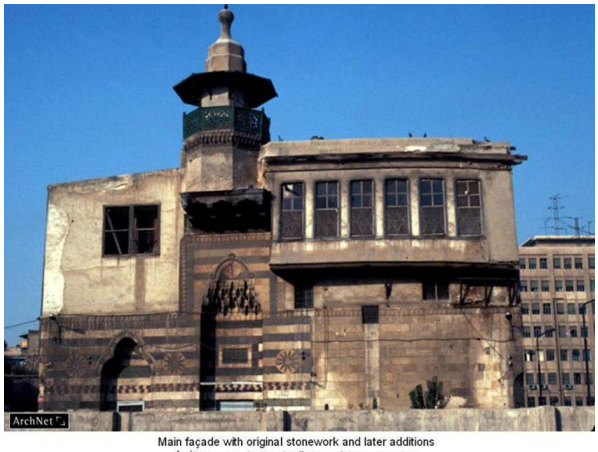

Main façade with original stonework and later additions
البناء المهجن والمؤلف من طابقين غير متجانسين / عماد الأرمشي

والبناء ككل... كما شاهدته أثناء زيارتي الميدانية للمدرسة مؤلف من طابقين، **الطابق السفلي** أصيل.. مبني في العهد المملوكي، وهو أصل بناء المدرسة التي عمرها الأمير المملوكي سيف الدين شاذي بك والمؤلفة من الحجارة الأبلقية ذات اللونين المتناوبين الأبيض والأسود.وفيها البوابة متقنة البناء، عالية فيها الزخارف المقرنصة.

أما **الطابق العلوي**: فأظن.. أنه لا علاقة له مطلقا ببناء المدرسة..!! ولا أدري من الذي بناه ؟؟؟.

لأننا لم نشاهد في دمشق أبنية مملوكية وفوقها أبنية ثانية بهذا الشكل!! ، وعليه فإن هذا البيت الموجود فوق المدرسة مبني دخيل، وشُيد في العهد العثماني لأن شكل نوافذه وطراز بنائه... يشيران إلى ذلك كما هي معظم العمائر التي انتشرت في العهد العثماني بدمشق وخاصة إبان ولاية الوالي العثماني علي باشا عام 1232 للهجرة الموافق 1816 للميلاد. كما أنه لا ينسجم بحال من الأحوال لا مع جمالية المبنى ولا مع الطراز المعماري لهذه المشيدة المملوكية.

الواجهة الجنوبية للمدرسة كانت تتميز بثلاث نوافذ منخفضة حتى مستوى الشارع، وفوقها مدماك من الحجارة المدككة الأبلقية الجميلة والمؤلفة من الحجارة السوداء والمزية اللون والمستمرة من الواجهة الشرقية إلى الواجهة الغربية وبنفس الارتفاع.

هذا بالنسبة للطابق السفلي المملوكي، أما الطابق العلوي العثماني فهو استمرار للبناء العثماني كما ذكرنا آنفا، ويؤطر البناء في أعلاه صف من الحنايا الضحلة المسطحة، وترتفع فوق الزاوية الجنوبية الغربية قبة مملوكية الطراز تقبع في الجهة الغربية الشمالية من المدرسة.

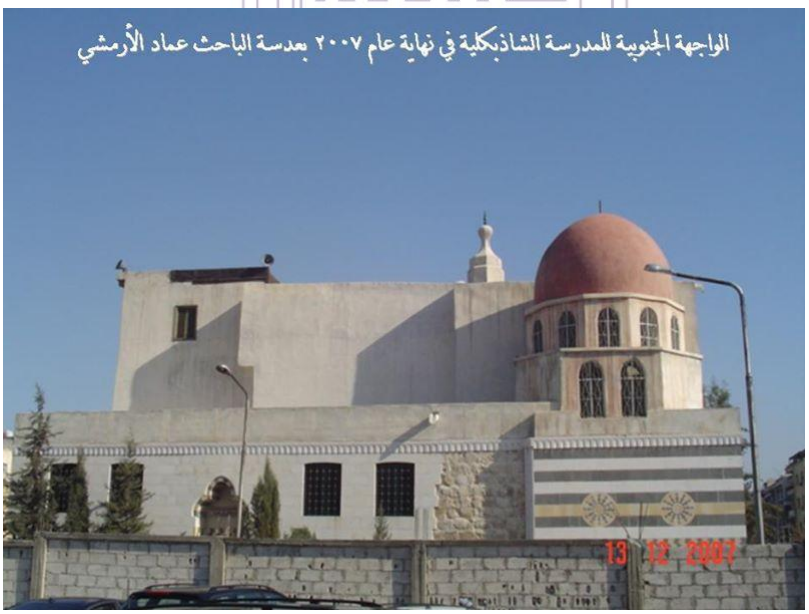

تقوم فوق الزاوية الجنوبية الغربية من بناء المدرسة (قبة المدرسة الشاذبكلية)، وتم إزاحتها إلى أقصى جنوب وغرب المدرسة وهي قبة ملساء مدببة تستند الى رقبة مضلعة بطبقتين، الطبقة العلوية ذات ستة عشر ضلعاً تفتح فيها ست عشرة نافذة مقوسة ومدببة، أما الطبقة السفلية فذات ثمان أضلاع، أربعة منها ملساء وأربعة مزخرفة بنوافذ توأم مقوسة ومدببة ومرتفعة التصميم.

كما يوجد في الواجهة الشرقية نفسها محراب سبيل المدرسة (السقاية) كانت تتغذى من نهر القنوات، ويشبه الى حد كبير شكل البوابة الرئيسية وهي بوابة صغيرة معقودة بقوس مدببة متجاوزة ثلاثية الحنيات كما هو ظاهر في الصورة.

وفيها لوحة حجرية منقوشة بالكتابات المؤرخة للسبيل وراعي السبيل، وفي أسفلها أيضا مدماك من الحجارة المدككة الأبلقية الجميلة من الحجارة السوداء والمزية اللون، وعلى طرفيها حشوتان مستديرتان شمسيتان، اليمنى منها مشتركة بينها وبين البوابة الرئيسة للمدرسة.

ولقد أصبحت المدرسة بعد بنائها فناً معمارياً يُحتذى به، هذا ما جعل المهندسين يستمدون منها عناصر عديدة في عمارة الترب والبيوت العربية التي شاع بنائها في مدينة دمشق بتلك الآونة.

وهذا ما أكد عليه مؤرخ الشام عبد العزيز العظمة رحمه الله تعالى في كتابه مرآة الشام وتاريخ دمشق في سياق حديثه عن القاعات السبع في دمشق.. فذكرها على أنها قاعة مسجد الشابكلية وليس المدرسة الشاذبكلية حين قال :

القاعات السبع في الشام سبعة مساجد مشيدة على طراز القاعات، لها برك وأحواض وجلسة ونفقة، وتعرف بالقاعات السبع وهي: **الشابكلية في القنوات، والمغيربية بالدرويشية، والنيروزي في باب سريجة، والخانقية في الميدان، والجقمقية في العمارة، والدغمشية في سوق الخيل، والخضيرية في الشاغور**، وأجملها شكلا وبناء هي الجقمقية.

لم يبق من آثار البناء المملوكي إلا الإيوان والبركة.. والباقية جددت في العصر العثماني، ويدخل من الباب إلى قاعة كبيرة فيها بركة مربعة.

في الغرب غرفة واسعة كبيرة، ولها شباكان وبابان إلى القاعة، فيها ثلاثة أضرحة، الأول منها من جهة جنوب الغرفة : هو ضريح نائب السلطنة (الأمير جلبان المؤيدي) والمتوفى عام 859 للهجرة الموافق 1455

للميلاد.ثم يليه شمالاً ضريح (الأمير يوسف بن شاذي بك) والمتوفى عام 881 للهجرة الموافق 1455 للميلاد، ثم يليه شمالاً ضريح (الأمير شاذي بك) والمتوفى عام 887 للهجرة الموافق 1482 للميلاد.

وقد كتب على الشباك الشمالي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم * ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

وعلى الشباك الجنوبي أبيات شعر.

في شمال بناء المدرسة وفي الجنوب: إيوانان عظيمان، فالشمالي له سقف خشبي بديع على النمط العثماني، وحائط هذا الإيوان من الحجر الجميل، والجنوبي فيه المحراب والمنبر القديمان، ولكنهما مشوهان بالدهان، أيام تجديد المسجد سنة 1232 بعناية السيد أحمد الموره لي، والى جانبي المحراب والمنبر شباكان إلى الطريق، وأمام المسجد كتاب أطفال يظهر أنه كان من توابع البناء كما يتجلى ذلك من طراز عمارته، كان هذا ما ذكره طلس سنة 1942.

أما الإيوان الجنوبي فهو إيوان كبير وهو في الأصل حرم بيت الصلاة، وبه محراب المدرسة مجدد وكذلك المنبر كان في منتصف الحرم وتم نقله الى اقصى الشرق كي لا يأخذ مساحة من الحرم نفسه، والى جانبي المحراب شباكان كبيران يطلان على حارة القنوات.

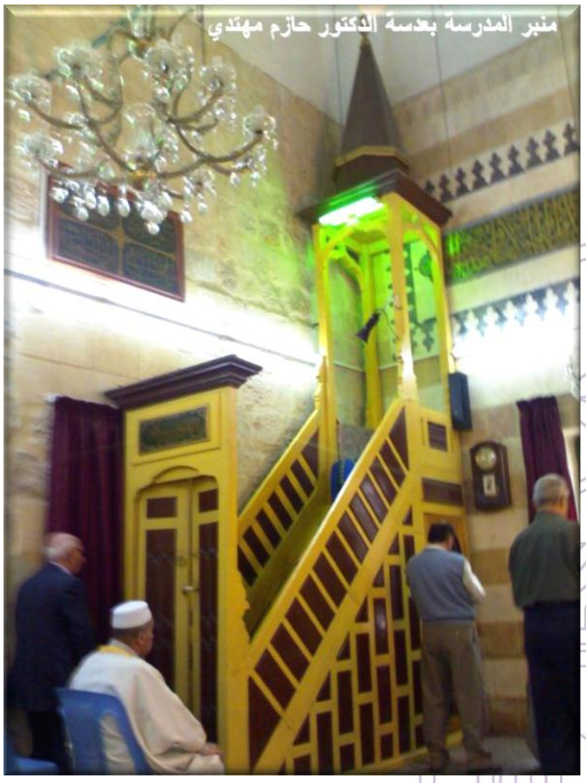
منبر المدرسة بعدسة الدكتور حازم مهندي

القاعة الكبرى بالمدرسة الشاذبكلية بعدسة الدكتور حازم مهندي

المنبر بعد نقله من جانب المحراب الى اقصى الشرق حين كان قائماً في منتصف الحرم كما هي الأعراف المتبعة بالمنابر، وتم نقله الى اقصى الشرق كي لا يأخذ مساحة من الحرم الصغيرة أصلاً

وكذلك تمت أعمال الصيانة الخارجية فقد تمت إزالة الأجزاء الترابية المحيطة بالمسجد كافة، واستبدالها بجدران حجرية تتناسب مع الجدران القديمة للجامع مع ترميم المقرنصات والزخارف الإسلامية.

ومن الأعمال المهمة التي تمت في الجامع إزالة الطينة والدهان اللذين كانا يغطيان جميع الزخارف والنقوش الإسلامية على جدران الجامع الداخلية وإظهارها وهي ذات شكل إسلامي رائع، كما تم ترميم وإصلاح سقف الإيوان الشمالي الخشبي المميز بروعته، بالإضافة إلى تدعيم المئذنة الخشبية وإصلاحها.

فرحم الله الأمير الكبير (سيف الدين شاذي بك) وأجزل له الثواب والإحسان على هذه المدرسة، التي كانت دار علم.. ونور... وتدريس الفقه الإسلامي، وكذلك الرحمة والإحسان على (الحاج أحمد المورلي) لتجديد عمارة المدرسة، وكذلك الشكر الجزيل لكل من ساهم في ترميمها وتجديد بنائها، فترحموا عليهم رحمهم ورحمنا الله تعالى.

إعداد عماد الأرمشي
باحث تاريخي بالدراسات العربية والإسلامية لمدينة دمشق

المراجع الصور بعدسة الدكتور حازم مهتدي

. مآذن دمشق تاريخ وطراز / د. قتيبة الشهابي
. ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد / د. محمد أسعد طلس
. مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية / د. قتيبة الشهابي
. مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها تحقيق نجدة فتحي صفوة / عبد العزيز العظمة
. الآثار الإسلامية في مدينه دمشق / تأليف كارل ولتسينجر وكارل واتسينجر، تعريب عن الألمانية قاسم طوير، تعليق الدكتور عبد القادر الريحاوي